



يدلّ الحراك الإقليمي والدولي حول سوريا في الأشهر الأخيرة على توجه واستعداد الأطراف المنخرطة في هذا الحراك نحو القبول بمقاربات سياسية طرأ عليها تطور نوعي، يعكس، في الواقع، الاختلاف والتغيير الذي أصاب البيئة الجيو- سياسية في الإقليم، خصوصاً بعد المعطى الاستراتيجي المهم المتمثل في تسوية الملف النووي الإيراني.

طهران، مهما كابرت، لن تستفيد اقتصادياً من تسوية ملفها النووي ببقاء الصراع محتدماً في سوريا واليمن وال العراق. كانت إدارة أوباما تخشى قبل هذه التسوية من أي مقاربات سياسية في الإقليم وملفات المتشابكة قد تفسد تلك التسوية أو تؤثر فيها سلباً.

اليوم تكاد واشنطن تتحرر نسبياً من هذه العقدة، من دون أن يعني ذلك أنّ ثمة مواقف انقلابية أو دراماتيكية، بخاصة في الملف السوري. يساعد واشنطن على الظهور بهذه الصورة أنّ روسيا وإيران أصبحتا اليوم، أكثر قناعة، بأنه من الصعب الإبقاء على الدرجة نفسها من الدعم اللامحدود للنظام السوري، فالتغيرات على الأرض، وفي المزاج الإقليمي والدولي، والاستنزاف المالي دفعهما لأنْ يكون الهدف اليوم التمسك بالرئيس بشار الأسد، والرياض وأنقرة والدوحة، لديهم اليوم المزيد من المسوغات والأسباب للتحدي وعدم التراجع عن دعم المعارضة السورية والسعى لإسقاط الأسد.

وحتى بعد زيارة عادل الجبير لموسكو، ومن قبلها لقاء المسؤولين السعوديين بعلي مملوك في جدة، قيل إنه رسالة موجهة إلى موسكو عن أنّ المرونة والبراغماتية متواترتان لدى السعودية، فإن الرياض مصرة على عدم التنازل عن مسألة «لا مكان للأسد في مستقبل سوريا وأنه جزء من المشكلة وليس الحل».

الرياض ماضية بالتفاهم مع أنقرة والدوحة في استكمال التغيير في سوريا، والجديد اليوم، الذي تقارب فيه الرياض مع موسكو، هو الاعتراف بأهمية المحافظة على مؤسسات الدولة السورية بما فيها الجيش، إلى جانب الاعتراف بأولوية محاربة «داعش»، وهذا أولويتان تقربان أيضاً بين موسكو وواشنطن، وقد تؤسسان لتسوييات جزئية وهدنة إنسانية هنا وهناك، وما حدث في الزبداني مثال قد يتكرر مع بعض التعديل.

قبل شهور كانت توصف العلاقات السعودية - الروسية (ومنذ أحداث «الربيع العربي») بالجمود والفتور. هذا الوصف لم يعد صالحأً اليوم، وكلما الطرفين لا يريدانه. هذا انزياح مهم، تكشف عنه أهمية المقارنة بين رد الأمير الراحل سعود الفيصل على المبادرة الروسية في القمة العربية الأخيرة في القاهرة، وتنمي الجبير لدى لقائه الأخير بلافروف أن تحدث موسكو مزيداً من التحول في مواقفها من الأسد، ورغبة موسكو، في المقابل، في أن تغير الرياض موقفها من موضوعبقاء الأسد، وتسعى إلى أن يكون هناك حوار بينه وبين المعارضة يفضي إلى مرحلة انتقالية قد تصل إلى خمس سنوات كما يريد الكرملين.

السعودية وروسيا تتفقان على مرجعية «جنيف 1» وتخالفان حول بقاء الأسد ضمن النظام الانتقالي المقبل، وحتى الأطراف الأوروبية والأمريكية - التي تؤيد الفترة الانتقالية ولا تصرّ على إبعاد الأسد - تختلف مع موسكو على المدة ولا تريدها أن تطول لخمس سنوات. الدخول في التفاصيل يعني الرغبة في التسويات والحلول والتهئة، والسؤال عما إذا كانت جزئية أم شاملة. العقدة في بقاء الأسد، لكن ذلك لن يمنع من احتمال قيام خطوات تهدئة وهدنة وتسويات جزئية هنا وهناك، وسيصيّب البعض التناقض والارتباك حين يرون هذه التهدئة الجزئية تتزامن مع تصعيد في الميدان، لأن جميع الأطراف تعي أن التسوية الشاملة مربوطة بمصير الأسد، وأن أي حراك دبلوماسي سيبقى قاصراً ما دام يتجنب هذه المسألة ويفصلها.

الحرك الإقليمي والدولي حول سوريا يهدف أيضاً إلى تقوية المعارضة الوطنية المعتدلة، وهي ما زالت ضعيفة. غالبية الأطراف، وليس جميعها، لا تريد أن يخلف الأسد «داعش» و«النصرة» و«أحرار الشام»؛ حتى لو استمر الصراع لفترة أطول، على رغم إشكالية أن إطالة الصراع هي في الواقع تغذية لكل نزعات التطرف والعنف والفوبي. لذلك ينبغي التفكير بآليات أكثر ذكاء ونجاعة لحل هذا التناقض.

الإقدام على هذا التفكير يعني توجهاً نحو التسوية الشاملة والحلول التوافقية، والتحدي الأكبر الذي يواجه جميع الأطراف هو: كيف تكون السنوات العشر المقبلة في المنطقة «ورشة» لإعادة إعمار البلدان التي دمرتها الصراعات بدلاً من أن تكون هذه السنوات العشر امتداداً للحروب الأهلية والفوبي والضياع الشامل؟